

صيد الخاطر

168 - - فصل : حديث ابن الجوزي عن نفسه .

تأملت أحوال الناس في حالة علو شأنهم فرأيت أكثر الخلق تبين خسارتهم حينئذ .
فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب و منهم من فرط إكتساب العلم و منهم من أكثر من الإستمتاع باللذات .

فكلهم نادم في حاله الكبر حين فوات الإستدراك لذنوب سلفت أو قوى ضعفت أو فضيلة فاتت فيمضي زمان الكبر في حشرات .

فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت قال : و أسفا على ما جنيت و إن لم يكن له إفاقة صار متأسفا على فوات ما كان يلتذ به .

فإما من أنفق عصر الشباب في العلم فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جنى ما غرس و يلتذ بتصنيف ما جمع و لا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئا بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم .

هذا مع و جود لذاته في الطلب الذي كان يتأمل به إدراك المطلوب .

و ربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها كما قال الشاعر :

(اهتز عند تمني وصلها طربا ... و رب أمنية أحلى من الطفر) .

و لقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذبين أنفقوا أعمالهم في اكتساب الدنيا و أنفقت زمن الصبوة و الشباب في طلب العلم فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه .

ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم و جاهي بين الناس أعلى من جاههم و ما نلت من معرفة العلم لا يقاوم .

فقال لي إبليس : و نسيت تعبك و سهرك ؟ .

فقلت له : أيها الجاهل تقطيع الأيدي لا وقع له عند رؤية يوسف و ما طالت طريق أدت إلى صديق :

(جرى المسير إليه خيرا ... و إن ترك المطايا كالمزاد) .

و لقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب و أرجو .

كنت زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث و أقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء .

فكلما أكلت لقمة شربت عليها و عين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم .
فأثمر ذلك عندي أنني عرفت بكثرة سماعي لحديث الرسول صلى الله عليه و سلم و أحواله و
آدابه و أحوال أصحابه و تابعيهم فصرت في معرفة طريقه كابن أجود .
و أثمر ذلك عندي من المعاملة ما لا يدري بالعلم حتى أنني أذكر في زمان الصبوة و وقت
الغلمة و العزبة قدرتي على أشياء كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال
و لم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلم من خوف الله .
و لولا خطايا لا يخلو منها البشر لقد كنت أخاف على نفسي من العجب .
غير أنه D صانني و علمني و أطلعني من أسرار العلم على معرفة و إظهار الخلوة به حتى
إنه لو حضر معي معروف و بشر لرأيتهما زحمة .
ثم عاد فغمسني في التقصير و التفريط حتى رأيت أقل الناس خيرا مني .
و تارة يوقطني لقيام الليل و لذة مناجاة و تارة يحرمني ذلك مع سلامة بدني .
و لولا بشارة العلم بأن هذا نوع تهذيب و تأديب لخرجت إما إلى العجب عند العمل و إما إلى
اليأس عند البطالة .
لكن رجائي في فضله قد عادل خوفي منه .
و قد يغلب الرجاء بقوة أسبابه لأنني رأيت أنه قد رباني منذ كنت طفلا فإن أبي مات وأنا لا
أعقل و الأم لم تلتفت إلي فركز في طبعي حب العلم .
و ما يوقعني على المهم فالحكم و يحملني إلى من يحملني على الأصوب حتى قوم أمري .
و كم قد قصدني عدو فصدته عني و إذ رأيته قد نصرني و بصرني و دافع عني و وهب لي قوى
رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي .
و لقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف و أسلم على يدي أكثر من مائتي
نفس .
و كم سألت عين مختبر بوعظي لم تكن تسيل و يحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام .
و ربما لا حت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري و زللي .
و لقد جلست يوما فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رق قلبه أو دمعت عينيه
فقلت لنفسي : كيف بك إن نجونا و هلك : فصحت بلسان وجدي : إلهي و سيدي إن قضيت علي
بالعذاب غدا فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لأجل لئلا يقولوا عذب من دل عليه .
إلهي قد قيل لنبيك صلى الله عليه و سلم : إقتل ابن أبي المنافق فقال : لا يتحدث الناس أن
محمد يقتل أصحابه .
إلهي فأحفظ حسن عقائدهم في بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك .
حاشاك و الله يارب من تكدير الصافي .

(لا تبر عودا أنت ريشته ... حاشا لباني الجود أن ينقضا) .

(لا تعطش الزرع الذي نبتة ... بصوب إنعامك قد روضا)